البنـــاء
السنة السابعة / الجمعة / 16 تشرين الأول 2015 / العدد 1908
Seventh year / Friday / 16 October 2015 / Issue No. 1908

«هنا لنا»... فعالية غنائية تُطلق صرخة في وجه كلّ مهاجر كي يعود إلى الوطن

دريد لحّام: الانتماء ليس كلمة نردّدها... إنه فعلٌ نفتدي به الوطن

خلال المؤتمر الصحافي

لحّام والطفل الموهبة مارك معراوي

دمشق ـ آمنة ملحم

«الوطن غلطان أنا معه، بردان أنا تيابه، تعبان أنا عكازته،

لك حفيان أنا صرمايته لأن هو وطني وتاج راسي...»، لسنا بصدد استعادة صدى هذه الكلمات لنذكّر بمسرحية «شقائق النعمان» المحفورة في الذاكرة السورية منذ سنوات وسنوات. لكن ترداد هذه العبارة على مسرح «دار الاوبرا» في دمشق كان محطة انطلاق لرحلة انتماء إلى الوطن ومن الوطن، تلتها عبارة «أنا الفنان الصاعد دريد لحّام»... هكذا، وبوقفة عزّ وشموخ وتواضع قامة، قدّم الفنان القدير دريد لحّام احتفالية «هنا لنا»، التي أقيمت على مدار يومَي الثلاثاء والأربعاء الماضيين، خُصّص اليوم الأول للإعلاميين من أجل مواكبة «البروفا» النهائية للحفلة، وتلاها مؤتمر صحافي. لتكون الانطلاقة في اليوم التالي بحضور رسميّ وفنّي واجتماعيّ حاشد.

«هنا لنا»، لم تكن احتفالية غنائية بقدر ما كانت رسالة وطنية لكل سوري مفادها أن هذه الأرض لنا، ولكي نبقى متشبّثين بها، وليعود كلّ مهاجر رفع يده مودّعا ترابها وهواءها أيّاً كانت أسباب هجرته.

بإبداع لامتناه، تتالت خطوات العرض، فشارك ـ تبرّعاً ـ عددٌ من الفنانين في هذا العرض، نذكر منهم: سلمى المصري، عباس النوري، نادين خوري، ميسون أبو أسعد، فادي صبيح، ومحمد حداقي. إضافة إلى شخصيات اجتماعية واقتصادية ورياضية مثل: فارس الشهابي، ماريا سعادة، وعمر حسينو، الذين قدّموا مقاطع فنية كتبها الكبير دريد لحّام، وتدور كلّها في فلك حبّ الوطن ونبذ الهجرة والتذكير بما يحمله الخارج من عداء، ودعوة إلى التشبث بمحراب الأخوّة السوريّة بين جميع الطوائف من دون استثناء. وتلميح لتنبّؤات نزار قباني بقوارب الموت التي يمتطيها العرب وتبعاتها غير المحمودة عليهم جميعاً.

قدّم كلّ من مكانه، مغنّياً مبدعاً اختير للحفل بمصاحبة الأوركسترا الموسيقية بقيادة المايسترو أندريه معلولي. فغنّت ليندا بيطار «سنرجع يوماً إلى حيّنا»، وتلاها وفيق حبيب بأغنية «عندك بحريّة يا ريّس»، لتغنّي ميس حرب «ع البال بعدك يا سهل حوران»، ولتشدو شهد برمدا «بكتب إسمك يا بلادي»، وليهتف دريد لحّام «الله محيّي شوارعك يا بلادنا»، ويصدح صوت همسة منيف بـ«يا قمر مشغرة»، ويحنو حسام تحسين بك بـ«أنا سوري»، ويؤدّي مصطفى الخاني «لعيونك يا شام»، ويبدع شادي أسود بـ«اشتقنا كتير يا حبايب»، ليكون الختام مسكاً مع ميادة بسيليس، قبل أن يملأ دريد لحّام، مصطفى الخاني، والطفل مارك معراوي، بمشاركة أطفال «جوقة ألوان» قاعة الأوبرا، دفء الشعور الوطني بدعوة صادقة من القلب للعودة إلى الوطن الأمّ، بالأغنية التي كتبها لحّام خصّيصاً لهذا الحفل، ولحنها المؤلّف الموسيقيّ طاهر ماملي، وجاء في مطلعها:

يا طيور الغيم طيروا
ع جناح الوجع طيروا
واندهوت علي غرّبوا
يلّي هجرتوا ارجعوا
نحن الصبح والندى
نحن الصوت والصدى
نحن الفرح الآتي
هنا لنا... لسّا الأغاني ممكنة.

كلام الفنانَ دريد لحام جاء مختصراً كلّ ما تحمله الاحتفالية من حبّ للوطن تُرجم على مسرح دار الأوبرا، ليؤكد أنّ «هنا لنا» حفلة انتماء إلى سورية، وتكريس لهذا الانتماء. فالانتماء ليس كلمة نردّدها شفاهنا، إنما هو فعل نحتضن به الوطن ونفتديه.

ومما قاله حبيب قلوب الأجيال «غوار»: هدفنا ليس أن نغنّي ليصفّق الحضور، إنما أردنا أن نغنّي جميعاً ومعاً لسورية.. وقد اخترنا أغنيات الحفل بدقة، فمنها الأغاني الوطنية، وبعضها يلمّح إلى الوطنية مثل أغنية «سنرجع يوماً»، وثمة أغاني تدعو إلى لمّ الشمل مثل «اشتقنا كتير يا حبايب»، و«ع البال بعدك يا سهل حوران». أردنا أن نقول إنك أيها السوريّ، كلما غنّيت أكثر كلما انتميت أكثر. الجميع يجب أن يغنّوا، وأوجه شكري لكلّ من شاركنا الاحتفالية بداية من مجموعة «أحباب يا بلدي» منظّمة الحفل التي كان لها الجهد الكبير لبلسمة جراح الجنود المجهولين في قطاعات الكهرباء والإطفاء والنظافة والإسعاف، وإلى كلّ الشخصيات الفنية والاجتماعية والمغنّين الذين شاركونا المسرح من دون أيّ مقابل ماديّ.

بدوره، تحدّث الفنان مصطفى الخاني إلى «البناء» عن رحلته مع الفنان دريد لحام وشريكهما طاهر ماملي، التي توّجت بهذا الحفل فقال: «هي فكرة خطرت لنا منذ ما يقارب سنتين. كان لدينا هاجس بأن نقدّم شيئاً لبلدنا كفنانين وكمواطنين سوريين من مكان عملنا. فكّرنا بإنجاز أغنية وطنية مشتركة لسورية. اجتمعنا مرّات عدّة، اقترحنا، عملنا، ثابرنا، إلى أن وصلنا إلى أغنية «هنا لنا»، التي كتبها الكبير دريد لحّام. ومع مرور الوقت، تطورت الفكرة مع مجموعة «أحباب يا بلدي»، لنقدّم الأغنية ضمن حفل جماهيريّ مع باقة من الأغاني الوطنية. كنّا لجنة اخترنا من سيغني معنا لسورية وعن سورية. واقترحنا أن يقدّم كلّ مطرب، فنان أو شخصية اجتماعية صناعية أو رياضية معروفة.

ونوّه الخاني بأن الحفل يعود ريعه للجرحى والمصابين بعجز من عمال الكهرباء والإسعاف والإطفاء والنظافة، وهم من تتوجّه إليهم مجموعة «أحباب يا بلدي». كما يعود ريع العشاء الخيري الذي تلا الحفل لهذه الجهات نفسها، متمنياً أن تصل رسالتهم كما أرادوها حقاً.

وعن تعاونه مع القامة دريد لحّام، أكد الخاني أنه يردّد دائماً فخره بانتمائه إلى بلد فيه أكاديميتان لتعليم الفنّ هما: المعهد العالي للفنون المسرحية، ودريد لحام الذي يتعلم منه الجميع.

من ناحيته، لفت المؤلف الموسيقي طاهر ماملي إلى أنّ «هنا لنا» ليست استعراضاً فنّياً أو موسيقياً. إنما هي رسالة فنية فيها أداء لممثّل محبوب محلياً وعربياً مصطفى الخاني. وأداء صوتي بإحساس قامة عريقة لا نستطيع سوى البكاء حين سماعها أي دريد لحام. إضافة إلى الطفل النجم مارك معراوي. «هنا لنا» ليست أغنية، إنها محاولة لاجتراح فعل حيال بلدنا.

وأوضح ماملي أنّ «هنا لنا» سُجّلت، وستُصوَّر لاحقاً، وهي رسالة سمعية بصرية ستبقى مستمرّة لنقول للجميع إنّ «هنا لنا» لكم.

وأشار ماملي إلى أنّ أغاني الحفل اختيرت من المرحلة الذهبية للأغنية الوطنية، وأدّاها نجوم من الفن الحقيقي، إنهم قامات تشكل تراثنا وحاضرنا ويجب أن يكونوا ذخرنا الفني للمستقبل. فنحن نحارب من خلال هذه القامات وفنّها الحقيقي الجميل.

بدورها، قالت كريستينا من مجموعة «أحباب يا بلدي» منظّمة الحفل، إنّ المجموعة هي مبادرة للتنمية المجتمعية، وإنّ المساعدات الإنسانية لأخوتنا في المواطنة عمال الكهرباء والصيانة والنظافة والإسعاف والإطفاء، واجب وطنيّ وقومي. وقالت إنّ المجموعة ما زالت تعمل منذ سنتين على تقديم المساعدات للمصابين من هذه الفئات، الذين تعرّضوا لإصابات أقعدتهم أثناء أدائهم واجبهم. وتم الوصول إليهم بالتعاون مع محافظة دمشق، وجُمع مبلغ مقداره 17 مليون ليرة، وقدّم لهم في مختلف المحافظات السورية. وجاءت احتفالية «هنا لنا» دعماً لهؤلاء الجنود المجهولين.

وقال الفنان القدير حسام تحسين بك لـ«البناء»، إنّ مشاركته جاءت لأنّ الاحتفالية تجسّد حالة وطنية، ولأنها توجّه نداءً إلى كلّ مواطن، لأن يعمل من موقعه مع الفاعليات الوطنية، ليرسلوا صرخة مفادها أن الشعب السوري صامد ويحب البلد. وقال: نحن نسعى إل إعادة الألق لبلدنا قدر استطاعتنا. وأهمية مشاركتي تأتي لأردّد أغنيتي «أنا سوري»، مؤكّداً أنني «أنا سوري ويا نيّالي».

وفي حديث إلى «البناء»، أكدت عضو مجلس الشعب ماريا سعادة، أن «هنا لنا» تأكيد بأن سورية لنا كلّنا، وأنّها تأكيد للبقاء وتعكس إصرارنا على بقائنا في أرضنا وبيوتنا ووطننا، وهي تأكيد على تجذّرنا في هذه الأرض الطيّبة، لأننا نحمل التاريخ كمجتمع سوريّ، والباب مفتوح للجميع ليقولوا كلمتهم وليعبّروا عنها بالغناء أو الحديث أو حتّى بصورة.

الفنان المحبوب محمد حداقي، قال لـ«البناء»: إننا نؤكّد على ضرورة عودتنا كبلد واحد، نضحك ونبتسم بأي طريقة، ولكن الأهم أن نعود. سنبقى نضحك ونفرح ونغنّي ونقدّم الفن الجميل لنحارب به من يتآمر علينا وعلى بلدنا الحبيب.

أما الطفل مارك ذو السنوات الـ15، فتحدّث إلى «البناء» بنضج وطنيّ فقال: نحاول أن نوصل الصوت السوري للجميع. وأن نرجع سورية كما كانت. سورية ليست بلد حرب، إنها بلد حضارة وفنّ وعلم.

ولم يغب عن بال منظّمي «هنا لنا» إحراز أهداف غير مباشرة خلال إعداد المشروع، تبدأ برفع الروح المعنوية الوطنية والتشاركية والمواطنة الفاعلة وحشد الطاقات الإيجابية، ولا تنتهي بالتأكيد على أنّ كلّ فرد في هذا المجتمع، قد يكون جندياً مجهولاً على هذه الأرض التي هي لنا ولكلّ سوريّ وطنيّ نبيل.

أفلام حقوق الإنسان في مهرجان «سان سباستيان»
تُسائل الضمير العالميّ وتستفزّه من أجل القضية الفلسطينيّة

خالد الكطابي*

ضمن إطار أنشطتها الإشعاعية، نظّمت مؤسسة «موندو بات»، أي «عالم واحد»، دورة خاصة للفيلم الوثائقيّ حول حقوق الإنسان في فلسطين، إذ عُرضت ستة أفلام وثائقية لمخرجين إسبانيين، تخللتها مناقشات وعروض للمخرجين ولمسؤولي منظمات تعمل على موضوع حقوق الإنسان في الأراضي المحتلة.

وما يميّز هذه الأفلام المعروضة، بفضاء مكتبة كامينو في مدينة سان سباستيان، كونها أخرجت من لدن شباب غالبيتهم ينحدرون من إقليم الباسك، تأثروا منذ صغرهم بما يدور هناك، وعندما سنحت لهم الفرصة حملوا كاميراتهم ليصوّروا الواقع كما هو، وليكونوا شهوداً هذه المرة على ما يجري هناك، ليتركوا لنا مشاهد ولقطات ستبقى في مخيّلة المشاهد.

لقد حاول منظّمو الدورة برمجة أفلام وثائقية مختلفة، سواء من حيث التوجهات التي اشتغل عليها المخرجون، أو من حيث تاريخ إنجازها، لكن ما يجمع بينها هي التوثيق لما يدور هناك عبر الصوت والصورة لحكاية قصص تسائل الضمير العالمي وتستفزّه من أجل اتخاذ الموقف اللازم.

ويرى إينيكو غيريكابيتيا، المدير المساعد لمؤسسة «موندو بات»، المسؤول السابق لفرعها في فلسطين طوال خمس سنوات، أنه «من المفارقات أن المجتمع الأوروبي يدعم فلسطين، فيما الحكومات تدعم إسرائيل». كما ندّد بالمضايقات التي يتعرّض لها فرع المنظمة، إذ أصيب أحد المتطوّعين في مدينة القدس، فيما أن باقي الأعضاء جدّ محتاطين ولا يخرجون إلى الشارع من جرّاء الأحداث الأخيرة.

وخلال افتتاح الدورة، عُرض فيلم «فلسطين أوف دي ريكورد» أي (فلسطين خارج التسجيل) وهو إخراج جماعيّ لمانو سانشيث، آندريس دومينغيث وإيرين سانشيث بريتو، مدّته 58 دقيقة، ومُنحت الكلمة لناشطين ومنظمات من المجتمع المدني الفلسطيني، وجمعيات عبرية على حدّ سواء، وبوجهات نظر مختلفة عن تلك التي نسمعها في وسائل الإعلام الغربية، حسبما يشير إليه مخرجو الفيلم.

يقدم الفيلم آراء ناشطين من كلا الجانبين، تتشابك في حوار حول قضية الاحتلال «الإسرائيلي» لفلسطين، ففي وقت يصف البعض الاحتلال بالأبارتايد، ترى ناشطة عبرية منَ أصول بلجيكية أنه من حق «إسرائيل» «إقامة دولة حسبما وعدهم الكتاب المقدس»... ويعرض الفيلم محنة ما يسمى بـ«عرب إسرائيل» وعدم قدرتهم على السكوت عن ممارسات الاحتلال ودفاعهم عن الحقوق المغتصبة. وأبرز الباحث عمر البرغوتي الفرق الذي تتبناه «إسرائيل» حول كلمة المواطن والوطني، إذ يمكنك أن تكون «مواطناً إسرائيلياً» وتتمتع بحقوق، لكن أقل درجة لأنك ببساطة لست يهودياً، الذي تختلف درجته من حيث موطنه الأصلي.

وفي العرض الثاني، قدّم المخرج الوثائقي والمصوّر الصحافي أوناي أرانثادي، الذي يعيش حالياً في مدينة استوكهولم، فيلمه «إي سين إمبارغو، الكودس» أي (ومع ذلك، فإن القدس)، مخرج الفيلم شاهد بأمّ عينيه ما حدث داخل الأرض المحتلة، وقدّم وجه المغتصب والمستلب بطريقة تختلف عن باقي الأفلام الأخرى التي تبثها القنوات الأوروبية، إذ يميط اللثام عن واقع الاضطهاد والملاحقات التي تتعرّض لها الأسر العربية التي تعيش في القدس. فحتى الأطفال لا يسلمون منها. ويمزج المخرج بين مشاهد حقيقية والاستعانة برسوم التحريك التي أنجزها آلكس أوربي، ليمنح للشريط بعداً آخر طالما يتعلق الأمر بالأطفال، حتى يتمكن من مخاطبة عالمهم الذي يرونه في أفلام التحريك فقط، لكنه واقع في القدس التي يأبى أهلها مفارقتها وإشهار هويتهم العربية، فكان الشعر كأداة لتثبيث الانتماء وكرمز للأرض ومع الموسيقى، حيث تعلم فن ضبط آلات الإيقاع لأن الاحتلال «الإسرائيلي» يقول مدرس الموسيقى يريد كسر إيقاع حياتنا ونمطها حتى لا يجعلنا نفكر سوى في إزاحة الحواجز التي يقيمها باستمرار داخل المدينة، بتقسيمها ووضع مراصد للمراقبة والتفتيش. لكن الأمل قائم في الجيل الجديد الذي يحمل القضية، ويحاول التعبير عنها فنياً، وهو ما أصبح يزعج الاحتلال الذي يرمي إلى تهويد المدينة كلها. وبعد انتهاء الفيلم حكى قصة أحد «المثليين الإسرائيليين» الرافضين للاحتلال، حين تحدّث عن نفسية «الإسرائيلي» المهزوزة: «يشعر الصهيوني بعقدة الذنب تظهر عليه عندما يركب الطائرة نحو بلاد أخرى، ويقوم بإخفاء هويته الحقيقية يتمتع بجنسيتين لأنه لا يثق بدولته».

وينقلنا فيلم «بويرتاس ديل المار» أي (أبواب البحر) وهو من إخراج جماعي لكل من ناتشو غارسيا وإيناس غروسين وآنتشيلا إيغليسياس وكارلوس سوردو، إلى الواقع الذي يعيشه الصيادون الفلسطينيون في قطاع غزة، وكيف انقلبت حياتهم رأسا على عقب، بعد إقدام الاحتلال في كل مرة على محاصرتهم عبر البحر، وذلك بتضييق الخناق عليهم ورسم حدود بحرية جديدة بحسب هواه، كلما دعته ضرورته إلى ذلك، غير آبه بالقوانين الدولية.

ويرصد الفيلم كيف تم الانتقال من عشرين ميلاً بحرياً كان يستفيد منه صيادو القطاع قبل مفاوضات أوسلو، وظلّ يتناقص إلى حدود ثلاثة أميال، وهو ما يهدد الصيادين في مصدر قوتهم.

ويناقش الفيلم محاولة الاحتلال القضاء على ثقافة الصيد البحري، وحصاره للفلسطينيّ بحراً هذه المرة، لتضاف إلى سلسلة الانتهاكات التي ينتهجها المحتل في ظل مقاومة ابن الأرض الذي يرفض الاستسلام ويتمسك بالماء والتراب.

وتلا عرض الفيلم، تدخّلاً لمالو إيغيلوث أبويتا ممثلة نقابة «إيهني» لفلاحي بسكايا، وعضو الوفد الباسكي لملاحظة حقوق الفلاحين، التي استعرضت ما يقوم به المحتل من مضايقات وأساليب بغيضة ليثني الفلاحين عن عملهم، فالجدار العازل جعل من كانت أرضه قربه، أن يجتاز مسافة مكوكية للوصول إليها، ومياه الشرب والسقي يتحكم فيها الاحتلال أيضاً، وآبار المياه غير صالحة، ما جعل عدداً من السكان، خصوصاً النساء، يعانون من أمراض خطيرة. وعلى الفلاحين إثباتَ أنهم زرعوا أراضيهم وإلا صودرت منهم إذا لم يقوموا بذلك خلال سنتين متتاليتين، ما حدا بهم لتصوير عمليات الزرع تفادياً لأيّ مشكل، خصوصاً عندما يتعرّض المزروع للتلف نتيجة شح الماء أو تعرّضه للعواصف الرعدية.

وعلى رغم ذلك، تقول مالو إن الفلسطيني يتمتّع بقدرة خارقة على الصمود، وهو أكثر تشبثاً بأرضه على رغم العقبات.

ويتناول فيلم «تريس موخيريس بالستيناس» أي (ثلاث نساء فلسطينيات)، الذي أخرجه مركز المعلومات البديلة، موضوع المرأة من خلال تقديم تجارب لثلاث ناشطات يختلفن، من حيث العمر أو أماكن الإقامة أو ماضيهن، وما يجمعهن البحث عن استقلاليتهن وعن التغيير. فالناشطة أمون سليم التي تنتمي إلى مجتمع الغجر في القدس، تطرح إشكالية عدم الاعتراف بهذا المجتمع. فالفلسطينيون يعتبرون أنهم ليسوا عرباً، و«الإسرائيلي» يعتبرهم عرباً. وتوجّه أمون نداء إلى السلطة الفلسطينية من أجل الاعتراف بهم، وزيارتهم كي لا يبقوا معزولين.

وتعمل أمون سليم مديرة لمركز اجتماعي، إذ تناضل من أجل أن تتلقى النساء الغجريات تربية وعملاً يمنحهن استقلاليتهن، لأن الغجر لا يقبلون على التعليم ولا يسمحون للغجرية بالعمل.

أما خلود بدوي، فهي من أبرز الناشطات السياسيات التي تسافر بالمشاهد نحو قريتها «صفورية»، والتي تم نفي عائلتها منذ سنة 1948، لتطرح إشكالية الهوية. متحدثة عن نشاطها الطلابي والحصار، الذي يفرضه الاحتلال على أنشطة طلاب الجامعة. ثم الناشطة النسائية المعروفة في المشهد الفلسطيني الراحلة مها نصار التي توفيت سنة 2013 بعد صراع مع المرض، والتي خبرت سجون الاحتلال أيضاً، وحكت مها عن دور الحركة النسائية في المقاومة والاحتجاجات، وكيف كانت تتقدّم صفوف التظاهرات، وتتدخل في فك الشباب المحتج من قبضة الأسر، وتحكي بحسرة بادية كيف تراجعت الحركة النسوية بعد اتفاقيات أوسلو.

أما فيلم «فويغو سوبري إلمارمارا» أي (نار على مرمرة)، فيسلّط فيه مخرجه دابيد سيغارا الضوء على حكاية سفينة السلام «مرمرة» التي كانت في طريقها نحو غزّة من أجل المساهمة في فكّ الحصار عنها. ويروي دابيد المأساة التي وقعت على إثر تدخل وحشيّ من قبل الجيش «الإسرائيلي»، عندما هاجم عناصر كوماندوس السفينة التي كانت تقلّ على متنها صحافيين وناشطين متضامنين عزّل، إلا من أدوات تصويرهم، حاملين بعض المعونات لشعب محاصر. وتتكون لجنة التضامن من حوالى أكثر من ثلاثين جنسية. ويرمي الفيلم، طوال 67 دقيقة، إلى محاولة فهم ما جرى من طرف أناس عاشوا الجريمة التي خلّفت تسعة شهداء للحرّية من جنسيات مختلفة، بعد التشويش على أجهزة الاستقبال والبث الخاصة بطاقم السفينة، أو بين الصحافيين وقنواتهم الإخبارية حتى لا يظهر أيّ دليل للمجزرة، على إثر تدخل وحشيّ مورس فيه القتل عن قرب والركل والرفس.

واختتمت الدورة بفيلم «صمود» الذي اختار مخرجه آندير إيريارتي آلباريث أن يعنونه باسمه العربي وشرحه للمتلقي الإسباني الغربي، ويعرّف عنه قائلاً: «إنه تحديد الشعب الفلسطيني حق الدفاع عن أرضه»، وخلال 19 دقيقة رصد فيها إيريارتي وضعية عائلات الفلاحين والصيادين الذين يواجهون تحدي العيش يومياً، في وقت يمارس الاحتلال سرقة الأرض والبحر ويعرقل بيع المنتوج الفلسطيني. ولعل أحد الفلاحين كان بليغاً عندما اعتبر «أن شجرة الزيتون رعيتها كما رعيت أبنائي، وأن الاحتلال عندما قام باجتثاثها فإنه لن يصل إلى مراده لأننا سنبقى صامدين».

كما عرض فيلم التضامن والدعم الذي يقوم به ناشطون دوليون بشكل يومي ومن ضمنهم ناشطون من إقليم الباسك، وبعد انتهاء الفيلم، قدّمت أنتشين بيبين بصفتها عضواً في منظمة التضامن مع فلسطين، كلمتها عن معاناة الفلسطيني وكيف تقوم «إسرائيل» بكل ما في وسعها لتجعل حياة الناس صعبة. ودعت إلى أن التضامن يجب أن يأخذ أشكالاً أخرى كمقاطعة المنتوجات «الإسرائيلية» أو الشركات الداعمة للاحتلال. وأبرز مخرج فيلم «صمود» أن اشتغاله على موضوع فلسطين جاء بعد سفره إلى هناك ورؤيته الواقع بعيداً عن تأثيرات وسائل الإعلام التي لا تنقل الحقيقة كما هي، وأنه مستعد للذهاب إلى هناك مرة أخرى والقيام بمغامرة جديدة.

* كاتب مغربي

خالد الأسعد... شهادة

■ باولو ماتييه*

حبّ كبير، وإخلاص فائق، وتطابق شديد مع تدمر: هذا كان خالد الأسعد وهذا كان الانطباع الذي كان يتأكد في كلِ مرة كنا نلتقي فيها ـ لدى زيارة آثار أكثر المدن القديمة سحراً وتأثيراً والواقعة في قلب الصحراء السورية ـ إنه الرجل الذي كرّس بكل بساطة حياته كاملة لهذه الآثار فائقة الجمال.

لقد جسّد خالد الأسعد في إطار المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية، ومنذ أكثر من خمسين سنة، مؤسَّسة ورمزاً في آن: التعلّق الحار بالآثار الذي كان قد عُهد له بالعناية بها مع كامل السلطات المطلوبة؛ والتجارب التي أغنتها عشرات السنين من العمل المكد والقاسي في الميدان إلى جانب زملائه القادمين من كافة أركان العالم (من الولايات المتحدة إلى سويسرا وألمانيا، ومن بولونيا إلى فرنسا إلى بلجيكا وإيطاليا)؛ والمعارف التاريخية التي تمتد من علم آثار الموقع المدني الذي لا يزال يحتاج للدراسة تحت ألف وجه ووجه إلى النقوش والكتابات في تدمر؛ والفخر، المضبوط والمحبَّب، المميز لعالِم كان يعدّ نفسه الابن والسليل الطبيعي لتراث مبهر لحضارَة تمتد عبر آلاف السنين؛ والاستقبال والضيافة اللذين كانا يصدران دائماً من القلب، استقبال كان أخوياً مليئاً بالعزة والكرامة إنما الذي يحترم الآخر في الوقت نفسه، استقبال وحده ابن البادية يعرف كيف يقدّمه، بطريقة شبه مقدسة، للضيف الغريب حتى وإن كان لا يعرفه.

إن التضحية برجل مثقف وعالم مثل خالد، الإنسان البريء والذي لم يقترف أي خطأ من جهته، الحكيم والصائب والأمين، وباختصار العادل ببساطة، التي ارتكبت بأكثر الطرق بشاعة، وحقارة ولاإنسانية، تجرح عميقاً ليس فقط مجتمع العلماء في العالم كله الذي يبكي فقدان زميل وصديق، بل أيضاً مجتمع العالم المتحضر، دون تمييز للبلدان والثقافة والدين. إن الأخطاء المزعوم نسبها إلى هذا الرجل الصادق لتبرير «إعدامه» البربري فلا يمكن مسامحته، تشتمل على كونه خدم بلده بشغف وحب، حامياً طيلة السنوات الماضية التراث الذي لا يُقدَّر لوطنه ومتكتماً مؤخراً على الأماكن حيث خُبّئت كنوز مدينة هي تراث عالمي للإنسانية.

في ساعات الجزع والقلق التي تلت هذا الفقد الذي لا يمكن تقدير مدى جسامته، تساءلنا لماذا لم يسعى رجل شريف مثله إلى حماية نفسه وحياته أولاً وذلك بأن يلجأ هو نفسه إلى مكان آمن حيث أخفيت الكنوز عن جشع الإرهابيين. وكان الجواب، ربما، أن هذا الرجل الصادق قد وثق، وأخطأ للأسف، بسلطته الأخلاقية التي لا شك فيها والتي كانت ستنقذه من أي خطر محتمل. في الوقت الحالي، ووفق التقديرات الأكثر قتامة، فقد بات من الثابت للجميع أن سلطة أخلاقية رفيعة أو إنسانية لا قيمة لها على الإطلاق في نظر رجال قادرين على تدمير غنى كتدمر.

بعد تدمير عشرات الأماكن المقدسة للإسلام الشيعي والسني وللمسيحية في العراق وسورية، والتدمير الذي لم يسبق له مثيل للآثار في الحضر ونمرود، أطلقت السيدة إيرينا بوكوفا، المديرة العامة لليونسكو، نداء قوياً للـ «المفكرين والصحفيين والأساتذة والعلماء للدفاع عن التراث الذي ينتمي إلى الإنسانية جمعاء». مع ذلك، فإن الرأي العام العالمي الذي عادة ما يكون تفاعله أو استجابته أو سخطه عرضياً جداً ومحدوداً ـ هذا إضافة إلى أنه غالباً ما يكون مغرراً به عبر معلومات تفصيلية وجزئية وغير موضوعية تنشرها بشكلٍ كبير المصالح الاقتصادية والسياسية ذات الصلة والتي غالباً ما تكون معارِضة ـ لا يمكن أن ينسى أبداً أن المديرية العامة للآثار والمتاحف في دمشق قد فقدت خلال الشهور الأخيرة، وعلى كامل الأرض السورية، خمسة عشر موظفاً وحارساً ضحوا بحياتهم في محاولة حماية وإنقاذ التراث التاريخي والأثري لبلدهم.

في أوج هذه الوباء المستشري للأزمة الخطيرة التي تبدو دون حل، لا يمكننا إلا الانحناء أمام تضحية الموظفين الأبطال الذين يدافعون على الأرض في سورية وبشكل ميؤوس منه. وهم لا يقدمون تضحياتهم باسم حزب سياسي، بل فقط من أجل حماية كنز لا يقدر بثمن من قدر مرعب من التدمير والإفناء، كنز يمثل بالتأكيد أساس وعمق الهوية الثقافية للشعب السوري، وهو بشكل خاص تراث فريد للحضارة الإنسانية.

إن التزام كل رجل وامرأة من المجتمع المدني، بالإشادة بنكران الذات الفائق لخالد ولجميع الذين ضحوا بأنفسهم من أجل حماية وإنقاذ التراث الثقافي الإنساني، يجب أن يشتمل على الأقل على حفظ وتكريم ذكرى جميع الذين قرروا ببطولة في سورية، على الرغم من آلاف المخاطر، البقاء في أرضهم وأمكنتهم ومواقعهم من أجل الدفاع عن الشواهد التي لا تقدر بثمن لتراث ثقافي ينتمي إلى العالم أجمع.

* عالم آثار إيطاليّ

ترجمة: موسى ديب الخوري

باسل الخطيب ينهي تصوير «وعد شرف»

أنهى المخرج السوري باسل الخطيب، تصوير فيلمه الروائي القصير «وعد شرف»، من تأليف سامر محمد اسماعيل وتمثيل نجاح سفكوني ويحيى بيازي وجيانا عيد وآخرين، وهو من إنتاج «شركة الهاني» بالتعاون مع الجمعية السورية لدعم أسَر الشهداء «تموز»، وشركة «جوي للانتاج السينمائي والتلفزيوني».

والفيلم كما يقول الخطيب من الأفلام الروائية القصيرة، مدّته نصف ساعة، صُوّر في صافيتا وتلكلخ، ويحكي عن أسرة سورية تعيش اليوم وتتفاعل مع الأحداث الجارية في الوطن. إضافة إلى وجود صراع داخل أفراد هذه الأسرة، ويتطوّر من خلال تفاعل أفرادها مع الأحداث الجارية.

من جهة أخرى، كشف الخطيب أنه يحضر لحفل افتتاح العرض الأول لفيلمه الجديد «سوريون»، الذي أنتجته المؤسسة العامة للسينما، كما يحضر لتصوير فيلم روائيّ طويل بعنوان «وداعاً» من إنتاج مؤسسة السينما أيضاً.

بدوره، ذكر كاتب سيناريو فيلم «وعد شرف» سامر محمد اسماعيل أن الفيلم محاولة لإعادة سينما الحرب إلى مكانتها الطبيعية، كون هذا النوع من الافلام يضيء على جراحات البشر وعذاباتهم بعيداً عمّا تروّج به وسائل إعلام تخضع لأجندات معينة.

ورأى اسماعيل أن السينما هنا تقول إن الحبّ هو الطريق، وإن الإنسان هو الغاية المنشودة، كونها ترى بعين المحبّ لا بعين البغضاء والضغينة.